خيبة الأبناء

ومسئولية الآباء عنها

إذا تأملنا الطيور وكيف تعامل فراخها عند مايشتد ريشها وتقوى على الشروع فى الطيران رأينا عبرة ومغزى يستحقان الدرس . فان بعض الفراخ ينشط الى الطيران ويتعلمه فى لباقة وسرعة . وبعضها يلصق بالعش ويرفض الخروج منه الى اقتحام الهواء أو يجبن عنه . وعندئذ ترى أبويه يلطمانه بأجنحتهما ويقهرانه على الخروج . ثم يغريانه بالطيران شوطا بعد آخر حتى يمهر فيه . وبعد ذلك نجد الروابط العائلية تضعف حتى تنتهى بالانفصال بين الجيل الجديد وبين أبويه .

وما أعظم العبرة لنا فى هذا السلوك. فان حب الطيور لفراخها ليس دون حبنا لأولادنا . ولكن الطيور تحس بغريزتها أنها لن تعيش لأولادها ، فهى تعلمها الطيران والاستقلال على ما فى هذا من مخاطر وآلام يعرفها صبياننا الذين يقعون من وقت لآخر على فرخ من فراخ العصافير لا يزال فى طور التربية فيأخذونه بالرغم من صرخات الألم من أبويه .

والدنيا حافلة بالأخطار لنا وللحيوان . وجميع الآباء فى أعماق أنفسهم يحبون لو ينجو الأبناء من هذه المخاطر . ولكن أنى لهم ذلك وهم لن يعيشوا مع أبنائهم الى يوم وفاتهم ؟ وإذن يقضى منطق الحياة على الآباء بأن يعدوا أبناءهم لهذه الأخطار ويعرفوهم بها ويبينوا لهم طرق اتقائها . ولكن هذا الاتقاء لن يكون بالتزام الأبناء البيت بحماية جدرانه فى حضن الأم ودعة السرير مع طعام حاضر وتلبية لكل نداء . والأم تحب أن يتوافر كل ذلك لأبنائها ولكن عقلها يرشدها الى أن الدنيا تقتضى غير هذا الحب المدلل . وتطالبها بتعليم انها الاستقلال ، والطفل بطبيعة الطفولة وما فيها من عجز وتعلق بالأبوين يحب البيت ويرتاح الى دعته وأنسه . ويخشى اقتحام الدنيا . فاذا لم يجد تشجيعا على الخروج وتجرئة على الاقتحام بقى فى تعلقه بالبيت . ثم يثبت فيه هذا الأسلوب للسلوك فيشب عليه ويتخذ من الحياة موقف الريبة والخوف والإحجام .

حدث من زمن قريب أن توفى أحد الأثرياء فى الولايات المتحدة وخلف ولدا وحيدا . فخشى الموكلون عليه أخطار الطريق فكان لا يخرج إلا راكبا يرافقه خادم . ومضت عليه سنوات وهو على هذه الحال المأمونة الهادئة . ولكن خطر لهذا الصبى ذات مرة أن يخرج وحده فغافل الموكلين واقتحم الشارع فلم تمض عليه دقائق حتى كان مقتولا

تحت الأتوميلات التى كانت تجرى متوالية سراعا فى المدن الأمريكية . فهنا قد تعلل الأم وفاة ابنها بإهمال الخدم الذين وكلت إليهم حراسته وإرشاده . ولكن الحقيقة أن هذا الصبى قتل لأنه لم يتدرب على السير فى الشوارع . فإن شوارع المدن من الأمكنة الخطرة ولن نستطيع أن نحرم أولادنا منها مدى أعمارهم ولذلك ليس مفر من أن ندربهم على السير فيها ونعلمهم طرق الاتقاء لمخاطرها .

وهذا هو ما يجب أن يكون شأننا فى سائر الأحوال مع أطفالنا . فإننا لا نعيش لهم نحميهم من أخطار الدنيا . ويجب أن نعودهم الاستقلال ونهيئهم لدنيا نعرف أننا لن نكون معهم فيها فانهم سيعيشون بعد وفاتنا خمسين أو ستين سنة يلاقون فيها عالما من الأخلاق ووسائل العيش يطالبهم بالاستقامة والرجولة والشرف والتهذب فى اللغة والرشاقة فى الهندام . فاذا عودناهم فى طفولتهم أسلوبا من الأخلاق لا يساعدهم على مجابهة الدنيا والوقوف على أرجلهم فى شجاعة واستقلال فإنهم سوف يعيشون عيالا على غيرهم . وعندئذ نكون نحن آباؤهم علة خيبتهم ، وذلك لأن الأخلاق — أو أساليب الحياة — التى تتكون فى سنى الطفولة تستقر ويشق على الإنسان أن يغيرها . وهو أحيانا يكبر بها الى أن يبلغ الستين أو السبعين ، بل إن هذه الأخلاق التى تعلمناها فى حداثتنا وطفولتنا هى التى نعتمد عليها فى الأزمات النفسية ونرتد إليها . لأننا وقت الأزمة النفسية حين نقع فى حاجة ملحة أو شجار طارئ أو غضب أو غيرة أو نحو ذلك من الانفعالات ، نرتد الى أساليبنا الطفلية ونسلك ذلك السلوك الذى تعلمناه فى السنوات الخمس أو الست الأولى من أعمارنا . ومن هنا ذلك الأسلوب الذى نتبعه جميعا فى الخلاف إذا احتد . فقد نعيش السنوات ونحن لا نرد على ألسنتنا ألفاظ السباب ولا ترتفع أيدينا بإيماءة البطش . ولكن من منا يستطيع أن يحجز لسانه ويده عن هذا الأسلوب وقت الاحتداد والانفعال ؟

قليل منا هم الذين يفعلون ذلك . وهم أولئك الذين تخلصوا بمجهود عظيم بل عظيم جدا من الأسلوب السلوكى الذى تعلموه أيام الطفولة . بل يمكن أن يقال إن الجريمة نفسها هى ارتداد الى هذا الأسلوب . فان الأطفال فى خلافاتهم واحتداد عواطفهم يشتمون ويضربون . فاذا شبوا على هذا الأسلوب فقد يستطيعون أن ينسوه فى المعاملات العادية . ولكنه يطغى بهم وقت احتداد العواطف . وعندئذ يتخذ هذا الأسلوب الطفلى للسلوك صيغة العنف والجريمة . وهنا يجب أن نذكر ذلك الشاب الذى يحتد مع رئيسه فيعجز عن حبس عواطفه . وتكون نتيجة ذلك فصله من عمله .

وخيبة الأبناء فى الحياة تعلل بعلل كثيرة : منها سوء الصحة الجسمية ، وقلة المهارة الفنية ، وسوء الاختيار للعمل الذى يعمله الشاب ، ونحو ذلك . ولكن هناك أنواعا من الخيبة تعود

الى ذلك السلوك الذى استقر فى سنى الطفولة . وقد ذكرنا منها ذلك المثل البارز فى الطفل الذى عنيت أمه بحمايته ووقته من أخطار الشارع و بالغت فى الوقاية حتى انتهى حاله الى ضد ما قصدت اليه أمه . ولكن هناك أمثالا أخرى لا تبرز مثل هذا البروز . وهى تحتاج الى دقة التحليل كى نردها الى مردها الأخير فى إهمال الأبوين من حيث يدريان أو يجهلان .

فهناك الشاب الذى يطلب الوظيفة بشرط أن تكون فى القاهرة حيث ولد ونشأ . فهو يكره مدن الصعيد بل أحيانا يكره الاسكندرية على ما فيها من ميزات مدنية قد لا تبلغها القاهرة . وحقيقة هذه الكراهة ترجع الى التعلق الحميم بالأبوين والخوف من الدنيا فى صورة الاغتراب والبعد عنهما . فقد نشأ على أن يعتمد على أبويه — أو على أمه — فى كل شىء . اذ هى التى كانت تطعمه وتلبسه وتعطيه النقود لنفقاته وتنتظر عودته وتسرى عنه همومه . وقد ثبت فيه هذا الأسلوب حتى صار لا يطيق الابتعاد عنها يوما كاملا ، دع عنك الاغتراب عنها فى مدينة نائية . وقد تموت أم هذا الشاب فيتزوج فتاة ينقل اليها عواطفه السابقة نحو أمه . وهى عواطف الطفل نحو من هو أكبر منه . وقلما يسعد شاب مع زوجته بهذه العواطف . والأغلب ان الزواج يخيب أيضا الى جنب ألوان أخرى من الخيبة يقع فيها هذا الشاب لأنه لم يتعود الاستقلال .

وهـذا التعلق الحميم بالأم نراه كثيرا فى بيئاتنـا العائلية حين ترفض الزوجة الانتقـال الى مسكن آخر بعيد عن أمها فى غير الحى الذى تقطنه هذه الأم . وأحيانا ترفض الفتاة — باغراء أمها — التزوج بفتى فى بلدة أخرى لهذا السبب نفسه . وهى هنا لا تختلف من ذلك الشاب الذى يحب البقاء فى وظيفته بالقاهرة ويكره الانتقال لوظيفة أخرى فى مدن المديريات ويحارب لمنع هذا الانتقال .

ومثل هذه الاخلاق الطفلية تفاجئنا من وقت لآخر ونحار فى تعليلها لأننا نجهل الأسلوب الذى عاش عليـه صاحبها أيام طفولته . فقبل سـنوات حدث أن رب عائلة فوق الخمسين من عمره تعطل وحرمت عائلته كسبه وتألمت من هذا الحرمان . ثم عرض له عمل فى بلدة تبعد عن القاهرة — حيث مقر العائلة — نحو ساعتين . فقصد اليها وتسلم عمله . وكان المرتب حسنا والعمل لا يتجاوز مهارته وطاقته . ولكنه ترك العمل بعد نحو عشرة أيام وعاد الى عائلته يؤثر التعطل والحرمان على العمل والكسب . أما حجته فكانت بسيطة بل ساذجة وهى أنه لم يقدر على المعيشة وحده فى تلك البلدة . و بالطبع لم تكن زوجته قد رافقته اليها لأنها بقيت بالقاهرة مع الأولاد تعنى بهم وهم فى مدارسهم .

ونكرر القول أن هذا الرجل كان فوق الخمسين بل يقارب الخامسة والخمسين . ومع ذلك لم يستطع التخلص من أسلوب الطفولة الذى نشأ عليه . فقد كان وحيد أمه فخاطته بضروب من

الحماية و بالغت فيها حتى جعلته يخشى الانفراد والاستقلال والاقتحام . ثم تزوج فعامل زوجته كأنها أمه وصار يجهل الوسائل البسيطة للتصرف المستقل. ولم يكن يفارقها أكثر من يوم. فلما عرض له هذا العمل بعيدا عن زوجته عجز عن التصرف عجزا تاما . وأذكر أنى وأنا أحادثه أو وهو يحدثنى عن متاعبه فى تلك البلدة سألته : ألم تستخدم خادما يساعدك على قضاء حاجاتك هذه ؟ فكانت إجابته العاجلة : "لا ما افتكرتش" . وقد يظن القارئ أن هذا مثل متطرف لخيبة التى يقع فيها بعض الناس لأن آباءهم قد بالغوا فى حمايتهم ووقايتهم . ولكن الحقيقة أنه ليست هناك أية مبالغة . وكثير من الناس فى مثل هذه الحال ولكن الظروف لا تفضحهم أو لا تمتحنهم . فهم يروحون ويغدون يؤدون أعمالهم العادية ولا تنشأ مثل هذه الصعوبة بالتعطل والحرمان الا قليلا . ولا يحتاج الانسان لأن يكون قليل الذكاء لكى يقع فى مثل هذا المأزق، لأن أذكى الناس يسلك هذا السلوك اذا كان قد تعلمه فى الصغر واذا لم تكن الظروف قد نقحت فيه أو غيرته بعد ذلك .

وليست الحماية وحدها هى السبب الوحيد لخيبة الأبناء . فهناك ذلك الشاب الخجول الذى يخشى مقابلة الناس عامة والغرباء خاصة . والذى يقلق أشد القلق بل أتعسه اذا طلب اليه مقابلة رئيس . فإن هذا الخجل أو الحياء انما هو ضرب من الخوف. وهو يرجع فى أغلب الحالات الى أب قاس كان يخافه هذا الشخص أيام طفولته . فنشأ وهو يعامل سائر الناس كأنهم أبوه .

وهذه الحياة فى حاجة الى أن نتمرن عليها التمرين الصحيح . وأسوأ التمرين هو ما نحصل عليه أيام طفولتنا من أم تبالغ فى الحب والعطف ، أو أب يبالغ فى الشدة والصرامة . وقد تنبهت الأمم المتمدنة الى ذلك فأنشأت "خيام الصبيان" حيث يجتمع الصبيان فيما بين العاشرة والسادسة عشرة مثلا فى بقعة بالريف أو إلى جوار البحر . وهناك يعيشون مستقلين ، على كل منهم واجب خاص لنفسه فى ترتيب سريره وتنظيف خيمته ، وواجب عام فى تهيئة الطعام للصطافين . وقضاء شهر أو شهرين فى هذا العمل يصحح الاخطاء التى تعود الى التربية العائلية أو يخفف من أثرها .

بل كذلك أنشئت "جمعية المعلمين والآباء" فإن هناك ضروبا من الخيبة فى المدرسة ترجع الى مساوئ التربية العائلية . وهذه الجمعيات تجمع بين الأب والمعلم يتشاوران ويتباحثان فى العلاقة بين المنزل والمدرسة . وكثيرا ما يمكن رد الأسباب للتخلف فى الصبى الى حال منزلية سيئة .

ونظن ان فيما قلنا هنا خميرة للتفكير يمكن أن ينتفع بها الآباء .